قراءة غير مختصرة في كتاب
منية المريد في آداب المفيد والمستفيد

الأستاذ عرفان محمود

أهمية الكتاب

لا نعتقد أنّ من المبالغة القول بأنّ كتاب «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» هو من الكتب المرجعية التي تحتاجها الحوزات العلمية الدينية ـ علماء وطلبة ـ بل كلّ مبلغ للعلوم الإلهية وكل عالم ربّاني وكل متعلم على سبيل نجاة حتى من غير المتخصصين في العلوم الدينية. فكل مَن سبر أغوار هذا السفر الكريم ـ الذي جمع فيه الشهيد الثاني الكثير من النصوص الشرعية المرتبطة بمهمة العلماء والمتعلمين والمهتمين بعلوم الدين؛ وألحقها بالكثير من الفوائد والمواعظ والتنبيهات المستنبطة منها ـ يُلاحظ بوضوح اشتماله على ما لا غنى لهؤلاء عنه من معارف أساسية تهدي إلى سر النجاح والموفقية في مهامهم العلمية والتبليغية، وإلى أسباب الوصول إلى غايتهم الأسمى من القيام بهذه المهام. ولذا فالكتاب جديرٌ بأن يكون مادة دراسية أساسية في الحوزات العلمية ومعاهد إعداد المبلغين وغيرها، لا تنحصر الحاجة إليه بزمان دراسته أو تدريسه، بل تستمر إلى ما بعد ذلك، فينبغي الرجوع إليه باستمرار استذكاراً لبحوثه المهمة واستئناساً بمواعظه البالغة.

مؤلف الكتاب

مؤلف الكتاب هو الفقيه العامل والعالم الربّاني مجدد الإسلام في القرن العاشر وزين علمائه الأعلام زين‌الدين بن علي نورالدين بن أحمد بن محمد بن جمال‌الدين الجبعي العاملي الشهير بالشهيد الثاني، المولود سنة ٩١١ هـ. والمستشهد سنة ٩٦٥ أو ٩٦٦ هـ، من كبار علماء الإمامية[1].

تبحّر في مختلف العلوم الشرعية، فهو من أساطين الفقه الإسلامي، وآراؤه وتحقيقاته فيه لازالت موضع اهتمام المشتغلين في هذا العلم، وله فيه مصنفات كثيرة مشهورة. وإضافة إلى فقه مدرسة أهل البيت عليهم‌السلام، أحاط بفقه المذاهب الأربعة الأخرى، إلى درجة أهّلته لتدريسه في المعاهد العلمية العالية لأتباع هذه المذاهب في

إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية.

وتعرفنا مصنفاته ـ وهي كثيرة تفصح عن نشاط علمي تحقيقي نادر مدعم بقوة الاستدلال ومتانة النقد للآراء المختلفة ـ بسمو في علوم التفسير وفقه الحديث وعلم الرجال والتأريخ والأخلاق وعلم الكلام والعقائد وأصول الفقه وغيرها، والأهم من ذلك أنه رحمه‌الله قرن هذه المراتب السامية في العلم الإلهي بحيازة المراتب السامية في العمل والكمالات المعنوية زهداً وتقوى وتعبداً واجتهاداً وورعاً، حتى عُدَّ في كل ذلك من نوابغ الدهر؛ ولذلك احتلت آثاره مكانة متميزة في نتاجات الفكر الإسلامي فيما اتسمت مواعظه المتناثرة في مصنفاته بقوة التأثير في القلوب لأنها صادرة عن قلب تقي زاهد وعالم عامل إضافة إلى استنادها إلى تحقيقات علمية رصينة؛ وهذا الأمر يصدق على كتابه الذي اخترناه للحديث في هذه المقالة.

نسبة الكتاب إليه واسمه

لاشك في صحة نسبة الكتاب إلى الشهيد الثاني، فقد ذكره تلميذه بهاءالدين محمد بن علي العودي الجزيني في الرسالة التي صنفها في ترجمة أستاذه ونقل كثيراً من مسائلها عنه مباشرة، ووصف الكتاب بقوله: «مجلد مشتمل على مهمات جليلة وفوائد نبيلة تحمل على الانبعاث في الترغيب في اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل والتحلّي بشيم الأخيار والعلماء الأبرار»[٢]. كما صرح المؤلف باسمه الكامل في ختام الكتاب، ونسبه إليه معظم من ترجم له، وبالاسم المعروف للكتاب وهو: «منية المريد في أدب المفيد والمستفيد» فلا خلاف في هذاالاسم، خاصة وقد صرح به المؤلف في فاتحة كتابه[٣].

ملاحظة بشأن مفردة الآداب في اسم الكتاب

ومن الضروري هنا ـ وعند ذكر اسم الكتاب ـ الإشارة إلى أنّ مفردة «آداب» الواردة في الاسم قد توحي بأن البحث في الكتاب يدور في دائرة «الأفضل» فقط، فلا يشمل «ما يجب وما يحرم» حسب اللغة الفقهية المتعارفة، إلّا أن مراجعة مباحثه تفيد أن الأمر ليس كذلك، فالكثير من الآداب المذكورة فيها مرتبط بواجبات ومحرمات حسب المصطلح الفقهي، الأمر الذي ينبه إلى أن المقصود من «الآداب» هنا غير الآداب الشرعية التي يُراد منها دائرة قريبة من دائرة «المستحبات» بل المقصود أشمل من هذه الدائرة، هذا أولاً، وثانياً فإن معرفة هذه الحقيقة تضاعف من ضرورة الاهتمام بهذا الكتاب؛ لأنه يعرِّف المعنيين المخاطبين به بجملةٍ من الواجبات والمحرمات المرتبطة بهم والتي لا غنى لهم عنها، فيكون الاهتمام بدراسته ليس تطلعاً للمرتبة «الفضلى» بالنسبة لهم وحسب، بل هو ضروريٌ لمعرفة ما يجب وما يحرم عليهم أيضاً مما لابدّ لهم من معرفته.

تأليفه في مرحلة اكتمال النضوج العلمي

أما بالنسبة لتاريخ تأليف الكتاب فقد صرح مؤلفه في خاتمته بأنه أتمه «ضحى يوم الخميس يوم العشرين من شهر ربيع الأول سنة أربع

وخمسين وتسعمئة »[٤]، أي بعد عودته إلى وطنه في شهر صفر من عام (٩٥٣ هـ) من رحلاته التعلمية والتعليمية والعبادية[٥]، فتأليف الكتاب إذن جاء في مرحلة اكتمال النضوج العلمي لمؤلفه الشهيد رضوان الله عليه الأمر الذي يُكسبه أهميةً مضاعفة ويكشف أنه ثمرة ما لمؤلفه رحمه الله من خزين علمي وتحقيقي ثمين.

ملاحظة بشأن مدّة تأليف الكتاب

وثمة قضية أخرى مهمة ترتبط بالمدّة التي استغرقها تأليف هذا السفر الكريم. فضمن حديثه عن لزوم توكل العالم على الله وتفويض أمره إليه تبارك وتعالى قال المصنف رضوان الله عليه : « وعندي في ذلك من الوقائع والدقائق ما لو جمعته بلغ ما يعلمه الله من حسن صنع الله تعالى بي وجميل معونته مُنذ اشتغلتُ بالعلم وهو مبادئ عشر الثلاثين وتسعمئة إلى يومي هذا وهو منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وتسعمئة »[٦]. ويظهر من هذا النص الذي أورده في أواخر الربع الأول من الكتاب تقريباً أن إكمال الأرباع المتبقية من الكتاب استغرق ما يزيد على الستة شهور ـ الفاصلة ما بين ٥ / رمضان / ٩٥٣ إلى ٢٠ / ربيع الأول / ٩٥٤ تاريخ إتمام الكتاب ـ أي أن تأليفه استغرق ما لا يقل عن ثمانية شهور، وهي مدّة ليست قليلة لكتاب بهذا الحجم، خاصة عندما نلاحظ أن المؤلف من أساطين العلماء ومن المعروفين بكثرة المصنفات العلمية والتحقيقية وأن تصنيفه له جاء في مرحلة اكتمال نضوجه العلمي التي يسهل فيها التأليف والتحقيق؛ وأن المؤلف كان في وقت تفرغه لأمثال هذه النشاطات وهو في موطنه الأصلي، وهذه الملاحظة تكشف عن شدة اهتمام وعناية المؤلف بالمباحث التي أوردها في هذا الكتاب وبتهذيبها وتنقيحها، الأمر الذي يضاعف القيمة العلمية والتحقيقية للآراء والاستنباطات الواردة فيه.

الهدف من تأليفه

صرح الشهيد الثاني رضوان الله عليه في فاتحة كتابه بهدفه من تصنيفه، فقال بعد إشارته إلى فضيلة العلم : « .. ولكن ليس جميع العلم يوجب الزلفى ولا تحصيله كيفما اتفق يثمر الرضا، بل لتحصيله شرائط ولترتيبه ضوابط، وللمتلبس به آداب ووظائف، ولطلبه أوضاع ومعارف، لابدّ لمن أراد شيئاً منه من الوقوف عليها والرجوع في مطلوبه إليها لئلا يضيع سعيه ولا يُخمد جده... وقد رأينا في هذه الرسالة إفراد نبذة من شرائط العلم وآدابه وما يتبع ذلك من وظائف نافعة ـ إن شاء الله تعالى ـ لمن تدبرها موصلة له إلى بغيته إذا راعاها ونقشها على صحائف خاطره وكررها وهي مستنبطة من كلام الله تعالى وكلام رسوله والأئمة عليهم السلام وكلام أساطين الحكمة والدين والعلماء... »[٧].

التعريف بعوامل اكتساب العلم الإلهي

إذن هدف الكتاب هو تعريف المسلم بالعوامل التي توفقه في الحصول على المطلوب من العلم الإلهي بأفضل صورة ودون تضييع لوقته وعمره، هذا أولاً وثانياً تعينه في الحصول على الثمرة

المرجوة من هذا العلم وتبعد عنه العقبات الصادة عن ذلك والمضيعة لعمره فيما لا طائل منه ولا ارتباط له بتحقق الغاية الأصلية من خلق الإنسان.

الموضوعات الأساسية للكتاب: فضل العلم

وقد وفى المؤلف رضوان الله عليه لهذا الهدف بشقيه المذكورين وجعله محور حديثه في جميع بحوث كتابه، فخصص المقدمة للحديث عن فضل العلم الإلهي وشرفه وحدد المطلوب منه بالخصوص وفضل حملته وأصنافهم مستدلاً في ذلك بما بينه الشرع ونصوصه ودل عليه العقل السليم، فيما خصص الباب الأول منه لبيان الآداب المشتركة بين العالم والمتعلم للعلم الإلهي، وفيه أشار أيضاً إلى ما يجب تعلمه من العلوم الشرعية منبهاً إلى ضرورة الاقتصار على المقدار اللازم للعمل والتبليغ من علم الفقه (الحلال والحرام)، مؤكّداً أن المطلوب في التفقه هو اكتساب العلوم الإلهية التي تشكّل مادة «الإنذار» وهداية الآخرين إلى الله تبارك وتعالى وهي المهمة الأساسية والغرض الأول من «التفقه في الدين» كما ينص على ذلك القرآن الكريم، فأورد تحقيقاً علمياً مهماً وجديراً بالمزيد من الدراسة في معنى التفقه المطلوب ومواصفات الفقيه الإلهي.

مايجب تعلمه كفاية وفرض العين

وأكد رحمه الله في هذا الباب أن تعلم كثير من مسائل الأبواب المتعارفة في الكتب الفقهية هو من فروض الكفاية؛ في حين إن تعلم منجيات النفس ومهلكاتها وسبل تزكيتها وتطهيرها وتحليتها بالفضائل مما لم يُذكر في الأبواب الفقهية المتعارفة هو من الواجبات العينية التي لا غنى عنها فإن: «لها أحكاماً تخصها وذنوباً مقررة في محالها لابدّ لكل أحد من تعلمها وامتثال حكمها، وهي تكليفات لا توجد في كتب البيوع والإجارات وغيرها من كتب الفقه، بل لابدّ من الرجوع فيها إلى علماء الحقيقة العاملين وكتبهم المدونة في ذلك...»[٨]، وهذه فائدة مهمة للغاية لطلاب العلم الإلهي.

الآداب المشتركة بين العالم والمتعلم

والآداب المشتركة التي ذكرها رحمه الله في هذا الباب، هي: إخلاص النية لله في طلب العلم وتأكيد العمل به، والتوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وحسن الخلق المضاعف مع الناس والتواضع والرفق بهم، والإعراض عن اتباع أهل الدنيا وخاصة السلاطين ـ بهدف الحصول على الدنيا وليس الاستفادة من نفوذهم لإقامة معالم الدين ـ والمحافظة على شعائر الإسلام وظواهر أحكامه وآدابه ثمّ أعقبها بذكر الآداب المشتركة بين العالم والمتعلم فيما يرتبط بالدرس والنشاط العلمي لينتقل بعدها لتوضيح الآداب الخاصة بالمعلم في نفسه أولاً ثم مع طلبته ثم في مجلس التدريس وبما يضمن موفقيته في القيام بمهمته التعليمية، ثم تطرق للآداب المختصة بالمتعلم مفصلاً الحديث عن استنباطات لطيفة مستفادة من قصة موسى والخضر عليهما السلام طبق ما حكاه القرآن الكريم في سورة الكهف، واشتمل حديثه

في هذا المجال على توضيح العوامل التي تمكن المتعلم من اكتساب العلوم الإلهية المختلفة بالصورة الفضلى، والتحذير من العقبات الصادة عن ذلك، فيما يرتبط بمختلف شؤون المتعلم وعلاقته بأستاذه في مجلس درسه وخارجه والتنبيه على الابتداء بحفظ القرآن الكريم وترتيب التعلم بما هو أولى وتقسيم الأوقات للمطالعة وغيرها وآداب سماع الحديث وروايته ومذاكرة العلم مع أقرانه وغير ذلك.

آداب الفتوى والمفتي والمستفتي

أما الباب الثاني من الكتاب فقد خصصه الشهيد الثاني رضوان الله عليه للحديث عن «آداب الفتوى والمفتي والمستفتي»، ومهّد له بتوضيح جسامة مسؤولية التصدي للإفتاء من جهة وعظمة أجرها إذا قام بها المفتي وفق الشروط الشرعية المقررة، ثم عقد بحثاً فقهياً في شروط المفتي وأحكامه الشرعية ضمن عدة مسائل مهمة فيما يرتبط بكون الإفتاء وتحصيل القدرة عليه فرض كفاية، وبالحالات التي يتعين على المفتي الإفتاء والحالات التي لا يجوز له فيها الإفتاء، أعقبها بمسائل أخرى بشأن آداب الفتوى، وفيها جملة من الواجبات والمستحبات المهمة بشأن طريقة ولغة الإفتاء ومعظم مهماته، وأورد في هذا البحث ستاً وعشرين مسألة.

ثم عمد إلى توضيح الأحكام الشرعية ـ من واجبات ومستحبات ـ فيما يرتبط بصفة المستفتي ووجوب رجوعه إلى الأعلم الأتقى من المفتين لمعرفة ما يجب عليه معرفته من شؤون دينه؛ وطريقة الاستفتاء وآدابه. ويُلاحظ في هذا الباب استخدام اللغة العلمية المتعارفة في المتون الفقهية ـ بما تتميز به من دقة واختصار ـ في عرض معظم المسائل الواردة فيه.

أحكام المناظرة وآدابها

في الباب الثالث من الكتاب تناول في فصلين أحكام «المناظرة» كأحد الأساليب الشائعة في الأوساط العلمية الدينية والتبليغية، للوصول إلى الحق بصورة مشتركة بين باحثين أو إثباته وإقناع الطرف الآخر به، أو تلاقح الأفكار الاجتهادية في القضايا الدينية المهمة، ولذلك كان من الطبيعي أن نتوقع تناول هذا الكتاب الجامع لمهمات آداب نشاط علماء وطلبة العلم الديني، لهذا الأسلوب العلمي الشائع، فتناول المؤلف الجليل ـ في الفصل الأول من هذا الباب ـ شروط المناظرة الشرعية وأحكامها مصرحاً بأنها من «فروض الكفايات» ولكن: «إذا وقعت على وجهها الشرعي وكانت في واجب»[٩] من مسائل العلم الإلهي، فذكر رحمه الله ثمانية شروط وآداب تجعل المناظرة عملاً عبادياً خالصاً لوجه الله تبارك وتعالى خالياً من شوائب المراء وطلب السمعة والرئاسة.

شدة تحذيره من آفات المناظرة

ولكن للمناظرة آفات كثيرة ذات عواقب خطيرة لا مناص للمناظر والعالم والمبلغ الديني من معرفتها ليجتنبها، ولذلك خصص الشهيد الثاني رضوان الله عليه الفصل الثاني ـ الذي يزيد بأربعة

أضعاف عن الفصل الأول من هذا الباب ـ للحديث عن آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق، فذكر اثنتي عشر آفة لها مفصلاً الحديث عنها، مكثراً من النصوص الشرعية المبينة لها المحذرة منها، منبهاً إلى المصاديق الشائعة الظاهرة والخفية لهذه الآفات، مصرحاً في نهاية الفصل بلزوم ترك المناظرة إذا لم يقدر المناظر على التخلص من آفاتها على الرغم من إقراره بأن لها تأثيراً مشهوداً في شحذ الذهن، ولكن شحذ الذهن ممكن بأساليب أخرى تخلو من هذه الآفات، وختم الفصل بفائدة مهمة ولطيفة هي: «والشيء إذا كانت له منفعة واحدة وآفات كثيرة لا يجوز التعرض لآفاته لأجل تلك المنفعة الواحدة، بل حكمه في ذلك كحكم الخمر والميسر، قال الله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾، فحرمهما لذلك وأكد تحريمهما»[١٠].

آداب الكتابة وحفظ الكتب وما يرتبط بها

أما الباب الرابع والأخير من الكتاب، فقد خصصه رضوان الله عليه لآداب الكتابة والكتب وما يتعلق بتصحيحها وضبطها ووضعها وحملها وشرائها وإعارتها وغير ذلك، ومعلوم أن الكتابة والكتب هما من أهم وسائل تحصيل العلم وحفظه التي لا غنى للعالم والمتعلم عنها، لذا فالتعرف على آدابها وأحكامها أمر ضروري لكل عالمٍ ومتعلم ومبلّغ.

وقد صدر الشهيد هذا الباب بفائدةٍ علمية نادرة في حكم الكتابة من الناحية الفقهية ذات أهمية بالغة بالنسبة للعلماء والمبلغين، فقال في المسألة الأولى من هذا الباب: «... وهي [الكتابة] منقسمة في الأحكام حسب الغلم المكتوب، فإن كان واجباً على الأعيان فهي كذلك حيث يتوقف حفظه عليها، وإن كان واجباً على الكفاية فهي كذلك، وإن كان مستحباً فكتابته مستحبة، وهي في زماننا هذا بالنسبة إلى الكتاب والسنّة موصوفة بالوجوب مطلقاً، إذ لا يوجد من كتب الدين ما يقوم بفرض الكفاية بالنسبة إلى الأقطار سيما كتب التفسير والحديث، فإنّ معالمهما قد أشرفت على الاندراس ورايات أعلامها قد آذنت بالانتكاس، فيجب على كل مسلم الاهتمام بحالهما كتابة وحفظاً وتصحيحاً ورواية [وجوب] كفاية.

ومن القواعد المعلومة أن فرض الكفاية إذا لم يقم به مَن فيه كفاية يخاطب به كل مكلف ويأثم بالتقصير فيه كل مكلف به، فيكون ذلك كالواجب العيني إلى أن يوجد مَن فيه كفاية»[١١].

المسائل المختصة بعصر المؤلف

وواضحٌ أنّ ذيل هذه المسألة الفقهية مختص بزمان المؤلف رضوان الله عليه وهو القرن الهجري العاشر الذي كان يفتقد لوسائل الطبع والتكثير الموجودة اليوم بحالة متطورة للغاية، ولكن أصل المسألة الشرعية يمكن تطبيقه على عصرنا الحاضر مع ملاحظة خصوصياته وطبيعة الإمكانات الموجودة فيه وطبيعة الاحتياجات الفكرية التي يشهدها وما يوجبه من كتابة ونشر

للعلوم الشرعية الملبية لهذه الاحتياجات.

بيد أنّ كثيراً من المسائل التي ذكرها رحمه‌الله في هذا الباب مختص بالعصر الذي عاشه ولا يمكن تطبيقه على العصر الحاضر الذي ظهرت فيه أساليب جديدة في الكتابة وضبط الكتب وتحقيقها وتصحيحها، الأمر الذي يستلزم دراسة جديدة للنصوص الشرعية وكذلك للآداب التي ذكرها المؤلف لوضع الآداب الشرعية المناسبة لخصوصيات العصر الحاضر.

أقسام العلوم الشرعية

وقد ختم المؤلف رضوان‌الله‌عليه الكتاب بخاتمة اشتملت على مسائل مهمة تمثل في الواقع تكملة لا غنى عنها لمقدمة الكتاب التي تحدث فيها عن فضيلة العلم الإلهي وشرف حملته، فقد تطرق للحديث في الخاتمة عن أقسام العلوم الشرعية الأصلية فحددها بأربعة علوم أولها علم الكلام المشتمل على تعرف أصول الدين ووصفه بأنه «أساس العلوم الشرعية وقاعدتها... وبه يعرف صحيح الآراء [في العقائد] من فاسدها وحقها من باطلها...»[١٢]، ثم علم الكتاب تجويداً وقراءةً وتفسيراً ثم علم الحديث الذي وصفه بأنه: «من أجلّ العلوم قدراً وأعلاها مرتبة وأعظمها مثوبة بعد القرآن..»[١٣] وقسمه إلى ضربين: علم رواية الحديث وعلم درايته، وقد أكد أن مصدر أحاديث رسول الله وأئمة أهل بيته عليهم‌السلام واحد يرجع إلى قول الله عز وجل بواسطة رسوله الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. ثم القسم الرابع وهو علم الفقه «وفائدته امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه المحصلان للفوائد الدنيوية والأخروية»[١٤].

ثم ذكر عشرة علوم فرعية يتوقف عليها معرفة العلوم الشرعية الأصلية فيكون تعلمها مقدمة للعلوم الأصلية، فذكر علوم العربية وأصول الفقه والمنطق وتراجم الرجال والجرح والتعديل وغيرها.

مراتب العلم الشرعي من حيث أحكام تعلمه

ثم عرض رضوان‌الله‌عليه تقسيماً آخر لمراتب العلم الشرعي وما ألحق به من جهة أحكام تعلمه ضمن ثلاثة أقسام. فبعضه يكون تعلمه فرض عين، والثاني فرض كفاية، والثالث سنة مستحبة. وفصل الحديث عن القسم الأول فيما يرتبط بالاعتقاد وأصول الدين، ثم بالواجبات ثم بالمحرمات، وصرح هنا بأن من الواجبات العينية: «تعلم ما يحصل به تطهير القلب من الصفات المهلكة كالرياء والحسد والعجب والكبر ونحوها مما تحقق في علم مفرد وهو من أجل العلوم قدراً، إلّا أنه قد اندرس بحيث لا يكاد يُرى له أثر»[١٥]، ولعل هذا الوضع هو سبب كثرة تأكيداته في الكتاب على هذا العلم الشرعي المنقذ بالذات من بين العلوم الشرعية.

جسامة المسؤولية تجاه العلم الشرعي

ومن الفوائد المهمة بشأن هذا القسم الواجب تعلمه من العلوم الشرعية، تصريح الشهيد بأنه: «لو توقف تعلم بعض هذه الواجبات على الاشتغال به قبل البلوغ لضيق وقته بعده ونحوه، وجب على الولي تعليم الولد ذلك قبله من باب

الحسبة، بل ورد الأمر بتعليم مطلق الأهل ما يحصل به النجاة من النار...»[16].

أحكام العلوم الأخرى

ثم ذكر نماذج لما يجب تعلمه من العلوم على نحو الواجب الكفائي وحدده بأنه «ما لابدّ للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية... وما يُحتاج إليه في قوام أمر المعاش كالطب والحساب وتعلم الصنائع الضرورية...»[17]، ثم ذكر ما يستحب تعلمه كالنوافل والآداب الدينية ومكارم الأخلاق ومن العلوم الطبيعية ما يدل على عظمة الله، ثم فصل الحديث عمّا يُحرم تعلمه مطلقاً من العلوم كالسحر وبعض الفلسفة وكل ما يترتب عليه إثارة الشكوك، مشيراً إلى أحكام تعلم العلوم الطبيعية المباحة أصلاً وتحوله حيناً إلى مستحب وحيناً إلى محرم باختلاف الحالات والأوضاع المحيطة به والآثار الناتجة عنه.

منهج التدرج في اكتساب العلوم الشرعية

ثم عقد بحثاً مهماً عرض فيه ترتيباً للتدرج في تعلم العلوم الشرعية أوصى المتعلم به لئلا يضيع سعيه وليصل إلى بغيته بسرعة، وهو منهج مهم بملاحظة موفقية صاحبه في تجربته الذاتية في اكتساب العلوم الشرعية.

وأتم الشهيد الثاني كتابه بموعظة حسنة وبالغة ـ لصدورها من عالِم متعظ وعامل ـ فيها حثٌ أكيد على السعي للحصول على الثمرة الأساسية والهدف الذي ابتغاه المؤلف من تصنيف الكتاب وتقديمه لطلاب العلم الإلهي.

دائرة المخاطبين بالكتاب

يُلاحظ من العرض التفصيلي المتقدم للمطالب الأساسية الواردة في الكتاب أن المخاطب الأول به هم حملة العلم الديني وطلابه الساعون لاكتسابه على نحو التخصص فيه والتعمق في بحوره. إلّا أن هذا القول لا يعني حصر دائرة المخاطبين به بحدود المتخصصين به، بل إن الكثير من مطالبه مهمة وأساسية بالنسبة لكل مسلم يسعى لتعلم ما يجب عليه تعلمه من علوم دينه كما هو ملاحظ في مقدمة الكتاب والباب الأول منه وخاتمته وغيرها، بل إن فيه مطالب مهمة لا غنى عنها حتى للمقلد العادي كما لاحظنا في أحكام تعلم مراتب العلم الشرعي وفي آداب الاستفتاء وشروط المفتي وغيرها.

ولذلك يمكن القول بأنه كتاب ضروري ومفيد لكل مسلم حريص على معرفة سبيل الالتزام بدينه وما يجب عليه تعلمه من علومه، وهذه الضرورة تتضاعف بالنسبة للراغبين في تعلم العلوم الشرعية ـ على سبيل نجاة ـ والساعين للتخصص فيها وكذلك للمتخصصين فيها بالفعل من علماء ومبلغين.

منهج الشهيد الثاني في تصنيفه

يتضح من مراجعة الكتاب أن المصنف رضوان الله عليه قد التزم في المطالب التي عرضها فيه بما صرح به في فاتحته من الاستناد فيها واستنباطها من «كلام الله تعالى وكلام رسوله والأئمة عليهم السلام وكلام أساطين الحكمة والدين والعلماء الراسخين...»، وعليه يتضح أن الكتاب

يمثل في واقعه محاولة اجتهادية لبلورة نظرية المدرسة الإسلامية بشأن موضوع الكتاب، وقد لاحظنا في الكثير من مطالبه استخدام المؤلف للغة المتعارفة في المتون الفقهية والرسائل العملية الأمر الذي أضفى عليه صبغة التقنين الفقهي التي تساعد القارئ على معرفة الأحكام الفقهية بشأن مباحثِهِ، وهذه الخصوصية امتاز بها الكتاب عن الكثير من النتاجات الأخرى في هذا المجال التي اكتفت بالعرض الأخلاقي المجرد لآداب التعلم والتعليم وبصورةٍ تفقدها حالة إيجاد الاستشعار الوجداني لدى المخاطب بلزوم العمل بهذه الآداب كواجبات شرعية أو عدم التمييز بين ما يجب شرعاً العمل به وبين ما يستحب العمل به، وهذه من المشاكل الفنية المهمة والبارزة في مثل هذه المصنفات.

من المميزات المهمة للكتاب: جامعية أدلته

ومن المميزات المهمة الأخرى التي امتاز بها الكتاب استناده في أدلته النقلية إلى ماورد في القرآن الكريم، ثم ماورد في مصادر الفرق الإسلامية المختلفة، ثم ماورد في مصادر الإمامية بالخصوص، وكذلك ماورد في الديانات السابقة للإسلام وما روي عن الأنبياء السابقين وكذلك ماروي من الآثار عن الصحابة وعن عدد من علماء صدر الإسلام، وواضحٌ أنّ مثل هذه الجامعية توسع دائرة المخاطبين به لتشمل مسلمي مختلف المذاهب الإسلامية وترسخ لدى القارئ الاعتقاد بالآراء الواردة فيه باعتبارها تمثل آراء المدرسة الإسلامية بصورةٍ عامة.

التصحيح السندي

ورغم أن المصنف الجليل رضوان الله عليه قد صرح في عدد من الحالات بصحة أسانيد الأحاديث الشريفة ادلتي ينقلها ويستند إليها إلّا أن ذلك لم يشكل منهجاً ثابتاً في جميع مباحث الكتاب. ولعل السبب يكمن في اشتهار هذه الأحاديث وقبول الجميع لها وعدم وجود اختلاف يذكر بين علماء المسلمين بشأن مضامينها، الأمر الذي ينفي الحاجة لصرف الجهد في تصحيح أسانيدها. ولكن طبيعة التطور الفني في النتاجات العلمية الإسلامية المشهود في عصرنا الحاضر يستلزم بذل الجهد في الاستدراك على الكتاب بتصحيح أسانيد الأحاديث الشريفة المنقولة فيه ونقل الأحاديث ذات الأسانيد الصحيحة التي تشترك في مضامينها مع بعض الأحاديث المرسلة أو ذات الأسانيد الضعيفة المنقولة في هذا الكتاب، ومثل هذا العمل يزيد في قوة وتأثير وقبول المطالب القيمة الواردة فيه.

تكميل الاستدلال الفقهي

كما يُلاحظ في الكتاب أن المصنف رضوان الله عليه قد اقتصر في عدد من مباحث الكتاب على ذكر الأحكام الفقهية المرتبطة بها دون عرض لأدلتها الفقهية، لذا من المفيد للغاية الاستدراك عليه بذكر هذه الأدلة خاصةً وأن المخاطب الأول بالكتاب ـ كما ذكرنا ـ هم المتخصصون بالعلوم الشرعية. ورغم أن المرتبة العلمية السامية للمصنف رضوان الله عليه كفيلة ببعث الاطمئنان بمتانة الأدلة الفقهية لهذه الأحكام وبالتالي الاندفاع للعمل

بها، إلّا أن من المعلوم أن عرض هذه الأدلة بأسلوب علمي تخصصي يزيد من هذا الاطمئنان والاندفاع، خاصة وأن عدداً من هذه الأحكام غير موجودة في المتون الفقهية المعروفة، بسبب عدم البحث بشأنها من قبل العلماء السابقين رضوان الله عليهم أجمعين.

استفادته من لغة الخطاب الشرعي

ومن المميزات المهمة التي امتاز بها هذا السفر الكريم جمال اللغة التي عرض بها المصنف مطالبه، فهي لغة وجدانية متينة تخاطب عقل القارئ وقلبه وتبين له الحقائق وتبعث فيه كوامن التحرك للعمل بها وتجسيدها، ولذلك لاحظنا امتزاج اللغة العلمية الفقهية المجردة بالمواعظ البالغة والنصائح المشفقة والترغيب والترهيب، وقد استفاد المصنف رحمه الله هذه اللغة من لغة الخطاب الشرعي التبليغي التي امتازت بها نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، التي قلّ العمل بها في الكثير من نتاجات الفكر الإسلامي رغم قوة تأثيرها وشدة الحاجة إليها خاصة في النتاجات التبليغية التي لا تستهدف مجرد الإقناع العقلي، بل تهدف إلى هداية المخاطب إلى التحرك العملي لتجسيد ما تدعوه إليه.

اهتمامه بعرض المصاديق العملية

ومن المميزات المهمة لهذا الكتاب اهتمامه المشهود بعرض المصاديق العملية التطبيقية للأفكار النظرية التي يتبناها، وهذه ميزة مهمة تعين القارئ على تجسيد ما يقرأه عملياً وتحرضه ـ بصورةٍ غير مباشرة ـ على العمل، وإلى جانب ذلك اهتم المصنف رضوان الله عليه بتزويد القارئ بالكثير من التنبيهات النافعة على مداخل الشيطان والنفس الأمارة بالسوء وتسويلاتهما الهادفة إلى الصد عن العمل بالآداب والأحكام المذكورة في الكتاب، وتشتمل هذه التنبيهات على هداية القارئ إلى أوجه بطلان هذه التسويلات وأخطارها، وهذه ميزة مهمة للغاية تجعل الكتاب لا يقتصر على التعريف بالأحكام والآداب التي ينبغي العمل بها، بل يشمل أيضاً تعبيد الطريق أمام القارئ للعمل بها وإزالة العقبات الصادة له عن ذلك.

هل الكتاب بحاجة إلى إكمال واستدراك؟

مما لاشك فيه أن كتاب «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» كتابٌ جامع في بابه لا نظير له ـ في جامعيته ـ في تراث علماء الإمامية رضوان الله عليهم لذلك لاحظنا الفيض الكاشاني يعتمده كمصدر أول للتعرف على آداب العلم الإلهي وتعلمه في خمسة أبواب فضل العلم من كتابه القيم «المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء»[١٨]. إلّا أن ذلك لا يمنع من القول بأنه اليوم بحاجة إلى استدراك وإكمال، وهذا ما اتضح من خلال طيات الحديث في العناوين السالفة.

فقد اتضح أن بعض مطالبه ترتبط بخصوصيات خاصة بعصر مصنفه الجليل رحمه الله، وهذا ليس نقصاً في الكتاب بل هو كمال له؛ لأن كل نتاج فكري تبليغي إسلامي ينبغي أن يخصص جانباً منه للاستجابة للاحتياجات الفكرية الخاصة

بالعصر الذي يعايشه استناداً للقواعد العامة الثابتة في الشرع الحنيف، وهذه الاحتياجات هي من «الحوادث الواقعة» المستجدة التي يجب الرجوع فيها إلى حفظة نصوص الشرع لاستنباط أحكامه بشأنها. لذا فإن الاستدراك الأول والأهم الذي ينبغي إنجازه على هذا السفر القيم هو عرض المصاديق والمسائل المستجدة في دائرة موضوع الكتاب الرئيسي التي يعيشها المخاطبون بالكتاب في هذا العصر بحكم التطورات التي شهدها فيما يرتبط بعملهم وأساليب التبليغ وطريقة الحياة المعاصرة وغير ذلك مما لم تكن موجودة في عصر المؤلف ولم يتناولها بالطبع.

وثمة استدراكات فنية أخرى تقدم الحديث عنها في مواضعها سابقاً، ونضيف هنا ما يرتبط بآداب المناظرة، وطبيعة العلوم التي يحتاجها المتخصص في العلوم الدينية ودائرة تخصصه في بعضها بحكم تشعب الاحتياجات الفكرية في هذا العصر الذي يشهد تطوراً في أساليب الاتصال والحوار بين الحضارات والاتجاهات الفكرية المختلفة، كما يشهد انفتاحاً على أتباع الديانات الأخرى وتطلعهم لمعرفة الإسلام، الأمر الذي يوجب تجهيز طالب العلم الإلهي بكفاءات جديدة تناسب هذه التطورات، مثل تعلم المزيد من اللغات الحية والاطلاع على آراء المدارس الدينية الأخرى وأساليب الحوار معها، ومثل الاستفادة من نتائج علوم النفس والإعلام ومخاطبة الجماهير وغير ذلك مما يرتبط بمهمته كمبلّغ للدين الإلهي.

الهوامش

١. راجع ترجمته في الرسالة القيمة التي كتبها تلميذه بهاءالدين محمد بن علي العودى وهو من خاصة تلاميذه وأقربهم إليه في أحوال أستاذه الشهيد الثاني، وهي منشورة في مقدمة كتاب «التنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية»، للشهيد الثاني، طبعة مجمع البحوث الإسلامية التابع للحرم الرضوي: ٢١ ـ ٤٢. وراجع أيضاً أعيان الشيعة ج ٧، ص ١٤٣، ومنها أخذنا المعلومات الواردة بشأن مؤلف الكتاب.
٢. المصدر نفسه، ص ٣٧.
٣. منية المريد: ١٨ طبعة مجمع الذخائر الإسلامية ـ قم المقدسة ١٤٠٢ هـ، إعداد السيد أحمد الحسيني، وقد اعتمدنا في المقال على هذه الطبعة من الكتاب.
٤. المصدر نفسه، ص ٢٠٦.
٥. مقدمة التنبيهات العلية، ص ٣٤.
٦. منية المريد، ص ٦١.
٧. المصدر نفسه، ص ١٧ ـ ١٨.
٨. المصدر نفسه، ص ٥٧.
٩. المصدر نفسه، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
١٠. المصدر نفسه، ص ١٧١. سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
١١. المصدر نفسه، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
١٢. المصدر نفسه، ص ١٨٨.
١٣. المصدر نفسه، ص ١٩١.
١٤. المصدر نفسه، ص ١٩٤.
١٥. المصدر نفسه، ص ١٩٨.
١٦. المصدر نفسه.
١٧. المصدر نفسه، ص ١٩٩.
١٨. نقل الفيض الكاشاني فقرات من كتاب منية المريد بالكامل ودون اختصار في أبواب صفات العالم وآداب المتعلم من كتابه المحجة البيضاء كما هو مشهود لمن يراجع هذه الأبواب، وقد اعتمده بالكامل بحيث استغنى عن ذكر اسم الشهيد الثاني عند نقل النصوص التي اختارها من كتاب منية المريد.